الفصل الحادي والعشرون

السرايا بين سرية مؤتة وغزوة فتح مكة:

المبحث الأول: سرية ذات السلاسل:

بعد عودة سرية مؤتة إلى المدينة بأيام قليلة، وبالتحديد في جمادى الثانية من سنة ثمان هجرية كما ذكر ابن سعد[1]، بلغ الرسول ﷺ أن قضاعة بدأت تتجمع مرة أخرى تريد الدنو من المدينة، فأرسل إلى عمرو بن العاص، فلما جاءه قال له: «... إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة»، فقال له عمرو: «يارسول الله: ما أسلمت من أجل المال، ولكن أسلمت رغبة في الإسلام وأن أكون مع رسول الله ﷺ»، فقال ياعمرو: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»[2]. ثم بعثه في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار ليقضي عليهم في ديارهم، وأمره أن يستعين ببعض فروع قضاعة من بَلِيّ وعذرة وبَلْقَيْن على ذلك العدو، لان أم عمرو كانت من بلي، وفي ذلكَ استئلاف لهم. وعندما وصل في مسيره إلى ماء بارض جذام، يقال له السَّلْسَل ـ وبه سميت السرية ـ بلغه كبر جمعهم، فأرسل رافع بن مَكِيث الجُهَني الى الرسول ﷺ فأمده بمائتين من المهاجرين والأنصار عليهم أبو عبيدةَ عامر بن الجراح وفيهم أبوبكر

---

(١) الطبقات (٢/ ١٣١) بدون إسناد فهي ضعيفة جدا.

(٢) رواه أحمد في المسند: الفتح الرباني (٢١/ ١٤٠ ـ ١٤١) بإسناد صحيح من مرسل عامر الشعبي. وانظر من خرجه ممن ذكرهم الساعاتي. وقال ابن حجر في الفتح (١٦/ ١٩٦/ شرح الحديث ٤٣٥٨)، عن هذا الحديث: «وروى أحمد والبخاري في الأدب وصححه أبو عوانة وابن حبان والحاكم من طريق علي بن رباح عن عمرو بن العاص، قال: «...» وساق الحديث بمثل ما أثبتناه هنا.

وخبر إرسال عمرو بن العاص على سرية ذات السلاسل ثابت في الصحيحين ولكن بدون تفاصيل كما عند أهل المغازي والسير. انظر البخاري/ الفتح (١٦/ ١٥٨/ ك. الفضائل/ ب. فضائل أبي بكر/ ح ٣٨٤٢).

وعمر، وطلب من عمرو وأبي عبيدة أن يتطاوعا. وعندما أصر عمرو على تولي الإمامة في الصلاة، لم يرد أبوعبيده أن يخالفه في هذا امتثالا لوصية الرسول ﷺ[٣].

وفي حديث أحمد[٤] أن النبي ﷺ استعمل أبا عبيدة على المهاجرين وعمرو ابن العاص على الأعراب، وأمرهم بالإغارة على بكر، فانطلق عمرو فأغار على قضاعة لأن بكرا أخواله، فأطاعه أبوعبيدة، ولم يخالفه أبوعبيدة في ذلك لأنه لم يرد الخلاف. ويستبعد هذا التعليل الذي ساقه الشعبي.

وسار عمرو بالناس حتى وطىء بلاد بلى ودوخها، حتى أتى أقصى بلادهم وبلاد عُذْرَة وبلقين، ولقي في أخر ذلك جمعا، فحمل عليهم المسلمون، فهربوا، فعاد بعد هذا إلى المدينة[٥].

وفي طريق العودة احتلم عمرو في ليلة باردة فتيمم ولم يغتسل غسله للجنابة، خشية البرد، مستندا إلى قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾[٦]. ثم صلى بالناس، وقد أقر الرسول ﷺ هذا الاجتهاد منه[٧].

وعندما أصابهم برد أمرهم عمرو بالا يوقدوا نارا ولا يتبعوا العدو، واعترض بعض المسلمين على ذلك، وعندما شكوه إلى رسول الله ﷺ[٨] قال عمرو: «كان في أصحابي قلة فخشيت أن يرى العدو قلتهم عندما يوقدون النار، ونهيتهم أن يتبعوا العدو مخافة أن يكون لهم كمين»، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ.

---

(٣) انظر: الواقدي (٢/ ٧٦٩ - ٧٧١) بأسانيده، وابن سعد (٢/ ١٣١ - معلقا، وابن إسحاق، معلقا - ابن هشام (٤/ ٣٥٩ - ٣٦٠)، ومغازي رسول الله ﷺ لعروة، ص ٢٠٧ وكلها أسانيد ضعيفة.

(٤) الفتح الرباني (٢١/ ١٣٩ - ١٤٠) من مرسل الشعبي، وهو إسناد ضعيف لا يحتج به.

(٥) ابن سعد (٢/ ١٣١) معلقا، والواقدي (٢/ ٧٦٩ - ٧٧١).

(٦) النساء: ٢٩.

(٧) رواه: أبوداود (رقم ٣٣٤، ٣٣٥/ ك. الطهارة/ب إذا خاف الجنب البرد تيمم) وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود رقم (٣٦٠ - ٣٦١)، والبيهقي في دلائله (٤/ ٤٠٢ - ٤٠٣) وسنته (١/ ٢٢٥ - ٢٢٦)، وقال عنه محققا زاد المعاد (٣/ ٣٨٨): «وسنده قوي، وعلقه البخاري في صحيحه (١/ ٣٥٨) وقواه الحافظ وابن حبان في صحيحه - الموارد ص ٢٠٢ وصححه، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٧) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه المنذري: وأحمد في المسند (٤/ ٢٠٣) بإسناد فيه ابن لهيعة، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٥).

(٨) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٢٥٤ ب)، وابن حبان في صحيحه كما ذكر ابن حجر في الفتح (١٦/ ١٩٥/ شرح الحديث رقم ٣٦٦٣).

فوائد فقهية في أحداث هذه السرية:

١) إن في خبر تأمير عمرو بن العاص على جيش فيه أبوبكرالصديق (رضي الله عنه) دليلا على جواز تأمير المفضول على الفاضل، إذا امتاز المفضول على الفاضل بصفة تتعلق بتلك الإمارة أو الولاية[٩]. فعمرو خبير حرب.

٢) وفي حديث تيمم عمرو جواز التيمم لمن يتوقع الهلاك من استعمال الماء البارد.

٣) وفيه جواز صلاة المتيمم بالمتوضئين.

٤) جواز الاجتهاد في زمن الرسول ﷺ كما في خبر تيمم عمرو وصلاته وهو جنب[١٠].

المبحث الثاني: سرية أبي حَدْرَد إلى الغابة:

بلغ رسول الله ﷺ ان رجلا يقال له قيس بن رفاعة أو رفاعة بن قيس أقبل في عدد كثير حتى نزلوا الغابة يريد أن يجمع قيسا على محاربة رسول الله ﷺ، وكان ذا اسم وشرف في جُشَم، فدعا رسول الله ﷺ عبدالله بن حدرد الأسلمي ورجلين من المسلمين ليخرجوا اليه، فخرجوا وتمكن ابن حدرد من قتل رفاعة بن قيس، وهرب قومه، فأخذوا ما قدروا عليه من النساء والأولاد وما خف معهم من أموالهم واستاقوا إبلا عظيمة وغنما كثيرة. وجاءوا بها إلى رسول الله ﷺ ومع ابن أبي حدرد رأس رفاعة، فأعطاه الرسول ﷺ ثلاثة عشر بعيرا من تلك الإبل[١١].

وذكر الطبري[١٢] أن هذه السرية كانت في شعبان سنة ثمان من الهجرة، وأميرها أبوقتادة.

---

(٩) انظر ابن حجر: الفتح (١٦/١٩٦/ شرح الحديث (٤٣٥٨).

(١٠) انظر: زاد المعاد (٣/٣٨٨ - ٣٨٩).

(١١) رواه ابن إسحاق كما عند ابن كثير في البداية (٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠) وإسناده ضعيف لأن فيه جعفر ابن عبدالله بن أسلم، حيث لم يذكر أنه سمع من أبي حدرد، ومع ذلك فهو مقبول كما قال ابن حجر، يعني حيث يتابع وإلا فهو لين، ولم يتابع هنا، ولذا ضَعّف الإسناد. ورواه ابن هشام في السيرة (٤/٣٦٧ - ٣٦٩) من حديث ابن إسحاق، وأبهم فيه ابن إسحاق اسم من حدثه. ورواه أحمد (٦/ ١١ - ١٢) من غير طريق ابن إسحاق. قال الهيثمي في المجمع (٦/٢٠٧): «وفيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات»، والواقدي (٢/ ٧٧٧) والبيهقي في الدلائل (٤/٣٠٣ - ٤) من طريق ابن اسحاق كما جاء في البداية لابن كثير.

(١٢) التاريخ (٣/ ٣٤) معلقا. فهو إذن ضعيف.

المبحث الثالث: سرية أبي قتادة إلى بَطْن إضَم[13]:

بعث رسول الله ﷺ سرية إلى إضَم فيها أبو قتادة ومُحَلِّم بن جَثَّامَة بن قيس حتى إذا كانوا ببطن إضم مر بهم عامر بن الأَضْبَط الأشجعي، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فأمسكوا عنه، ومع ذلك حمل عليه محلم فقتله لشيء كان بينهما، وأخذ بعيره ومتاعه، وفي ذلك نزل قول الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا. . .[14]﴾[15]. وقيل إن رسول الله ﷺ قد رفض أن يستغفر لمحلم عندما طلب منه ذلك وهم بحنين[16].

وقالوا إنه عندما مات بعد سبعة أيام من هذا دفنوه فلفظته الأرض مرتين فما كان من قومه إلا أن وضعوه بين جبلين، ثم رصوا فوقه الحجارة حتى واروه، فقال الرسول ﷺ عندما بلغه ذلك: «والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعظكم في حُرْم ما بينكم بما أراكم منه»[17].

وقد ذكر المحدثون أكثر من سبب في نزول هذه الآية. فقد روى البخاري[18] أنها نزلت في مسلمين مر بهم رجل في غنيمته وألقى إليهم

---

(١٣) الوادي الذي تجتمع فيه أودية المدينة، وقالوا: ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة عند السمينة (معجم البلدان (١/ ٢٨١). وقالوا: واد يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر عند المدينة، وهو لأشجع وجهينة. وعند ابن سعد: الطبقات (٣/ ١٧٩) أن بطن إضم هي فيما بين ذي خشب وذي المروة وبينها وبين المدينة ثلاثة برد.

(١٤) النساء: ٩٤.

(١٥) من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن ـ ابن هشام (٤/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤) وعند الواقدي بإسناد متصل (٢/ ٧٩٧) وابن سعد (٢/ ١٣٣) معلقا، أن أمير السرية كان أبوقتادة بن ربعي الانصاري، ويفهم ذلك من سياق ابن إسحاق. وروى الطبري في تفسيره (٩/ ٧٢/ شاكر) طرفا منه بإسناد متصل ولكن فيه عنعنة ابن اسحاق.

(١٦) ابن إسحاق، بإسناد حسن ـ ابن هشام (٤/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦)، والطبري في تفسيره (٩/ ٧٢/ شاكر) بإسناد متصل، و لكن فيه عنعنة ابن إسحاق.

(١٧) رواه الطبري في التفسير (٩/ ٧٢/ شاكر) بإسناد متصل فيه عنعنة ابن إسحاق ورواه ابن اسحاق بإسناد مرسل وضعيف لأنه أبهم من حدثه وأوقفه على البصري ـ ابن هشام (٤/ ٣٦٦)، ورواه البيهقي في الدلائل (٤/ ٣١٠) مرسلا موقوفا على البصري من غير طريق ابن إسحاق وفيه اختلاف يسير عن حديث ابن إسحاق.
ورواه موسى بن عقبة عن الزهري وشعيب عن الزهري متصلا إلى قبيصة بن ذويب ـ من أبناء الصحابة، وله رؤية ـ إلا أنه لم يسم محلما ولا عامرا ـ ابن كثير (٤/ ٢٥٢).

(١٨) الفتح (١٧/ ١٢٥/ ح ٤٥٩١).

السلام، فقتلوه، وأخذوا غنيمته. ورواه بنحو مثل رواية البخاري: أحمد[١٩] والترمذي[٢٠] والحاكم[٢١].

وروى البزار[٢٢] بسنده إلى ابن عباس أنها نزلت في المقداد بن الأسود عندما بعث في سرية وتفرق العدو وبقي رجل معه مال كثير، وشهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل».

ويبدو من هذه التفاسير أن الحادثة قد تكررت، وأن الآية نزلت في غير واحد[٢٣].

وكانت هذه السرية في أول شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة[٢٤].

وذكر الواقدي[٢٥] عن سبب بعث هذه السرية أن رسول الله ﷺ عندما أراد غزو مكة بعث أبا قتادة في ثمانية نفر إلى بطن إضم ليظن الظان أن رسول الله ﷺ متوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار.

فائدة و دروس في هذه السرية

١ ـ إن في قول الرسول ﷺ للمقداد: «كذلك كنت تخفي إيمانك قبل» لفتة كريمة إلى أنه لا ينبغي للإنسان إذا اجتمعت له أسباب القوة أن ينسى أيام ضعفه، فإنه إن فعل استبد به الغرور، وملكه الأشر والبطر[٢٦].

---

(١٩) المسند (٤/١٥٣/شاكر) بإسناد صحيح.

(٢٠) السنن (٨/٣٨٦/ تحفة الأحوذي) بإسناد حسن، وانظره في صحيح الترمذي للألباني (٣/٤٠/ح ٢٤٢٦) وصححه الألباني.

(٢١) المستدرك (٢/٢٣٥) وصححه.

(٢٢) نقله عنه ابن كثير في التفسير (٢/٣٣٨).

(٢٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٣٨) حاشية المحققين.

(٢٤) من رواية ابن سعد (٢/١٣٣) بدون إسناد، والواقدي (٢/٧٩٧) بإسناد متصل، ومما يؤكد هذا التاريخ ان الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن اختصما في عامر بن الأضبط عند رسول الله ﷺ وهو بحنين: عيينة يطلب بدم عامر، وهو يومئذ رئيس غطفان، وابن حابس يدفع عن محلم لمكانه من خندف، وأخيرا قبل عيينة الدية، يدفع نصفها في سفرهم ذاك والنصف الآخر إذا رجعوا. (رواه ابن إسحاق بإسناد حسن ـ ابن هشام (٤/٣٦٤ ـ ٣٦٥) وانظر الإصابة (٢/٢٩٢).

(٢٥) المغازي (٢/٧٩٦ ـ ٩٧).

(٢٦) انظر حاشية، محققي تفسير ابن كثير (٢/٣٣٨).